﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّبْـطُ بين مَـعـصـيـةِ آدمَ وحـوّاءَ وعُـقـوبـتِـهـا، وبينَ الاستجابةِ والـتّـوبـةِ لله الغفّارِ

لَمَّا ذكرَ اللّه تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ آدمَ وزوجَه أكلَا مِنَ الشَّجرةِ بعد إغواء إبليسَ لهما، وبَدَتْ سوْءَاتُهما، وكانَ نداءُ ربِّهما لهمَا بتذكيرِهما بالنَّهْيِ عنِ الأكلِ منَ الشَّجرةِ، وعداوةِ الشَّيطان لهما؛ فكانت هذه الآيةُ لبيان معرفةِ جوابِهما بعدَ هذا النّداءِ وتذكيرِ اللّه لهما[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: يدورُ معنى الخُسرانِ على النَّقصِ، ويُستعملُ ذلك في المُقتنياتِ الخارجةِ، كالمالِ، وهو الأصلُ في الاستعمالِ، يُقالُ: خَسِرَ التَّاجرُ في بيعِه بمعنى: نقصَ مالُه، وخسِرَ نقيضُ ربِحَ، كما يُستعملُ مجازًا في المقتنياتِ النَّفسيَّةِ كالصِّحَّةِ والسَّلامةِ والعقلِ والإيمانِ والثَّوابِ، ويُستعملُ الخُسرانُ في تعاطي ما يكونُ به الميزانُ في القيامةِ خاسرًا، ولهذا عُبِّرَ بالخُسرانِ عنِ الضَّلَالِ وَالهَلَاكِ، وكلُّ خسرانٍ ذكره اللّهُ تعالى في القرآن؛ فهو على هذا المعنى[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مِـنَ الأدبِ في الـدّعـاءِ، نِسبةُ الـذَّنْـبِ إلى الـنَّـفْـسِ مع الرّجاءِ والخَشْيةِ

بيَّنتِ الآيةُ أنَّ آدمَ وحوَّاءَ اعترفا بذنبِهما قائلَيْن: يا ربَّنا، ظلمْنَا أنفسَنا بالأكلِ منَ الشَّجرةِ الّتي نَهيتَنا عن أكلِها، وإنْ لم تغفرْ لَنا ذنوبَنا، وترحمْنا لَنكونَنَّ منَ الهالكينَ، ممَّن أضاعُوا حظَّهم في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/375.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والرّاغب، المفردات: (خسر).

دُنياهم وأُخراهم. وهذهِ الكلماتُ هي الّتي تلقَّاها آدمُ من ربِّهِ، فدعا بها، فتابَ اللّهُ عليه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا﴾:

اعـــترافُ آدمَ وزوجِـــهِ بعـدَ الأكـــلِ مـنَ الشَّجرةِ

لم تُعطفْ هذه الجملةُ على ما قبلَها؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّ سائلًا سأل: ما جوابُهما بعد نداءِ ربِّهما لهما في الآيةِ السَّابقةِ ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ [الأعراف: 22] الآية؟ كان الاعترافُ بالخطأِ من آدمَ وزوجهِ، وتضرَّعا إلى اللّه تضرُّعَ المُذنبِ المستغيثِ، قائلَيْن: ربَّنا ظلمْنا أنفسَنا.

دلالةُ التَّثنيةِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَا﴾:

التَّكاليفُ يتساوَى فيها الذَّكرُ والأُنثَى

جاء التَّعبيرُ بالمثنَّى في قولِه تعالى: ﴿قَالَا﴾ للدَّلالة على اعترافِهما بوقوعِهما في الأكل منَ الشَّجرة على حدٍّ سواءٍ، دونَ التَّفرقةِ بين آدمَ وزوجِه، وهذا دليلٌ على أنَّ التَّكاليفَ الشّرعيَّةَ، لافرقَ فيها بين الذَّكر والأنثى، وهذا ما ذُكر في هذه الآيةِ، من إقرارهما بتجاوُزِ نهْيِ اللّه لهما عنِ الأكلِ منَ الشّجرة، واعترافِهما بالذَّنب معًا.

سِرُّ التَّعبيرِ بالقولِ دونَ الدُّعاءِ أوِ النِّداء، في الآيةِ الكريمةِ:

القولُ أعمُّ وأَبْيَنُ في التّعبيرِ عنِ الحـالِ، وفيه اعـترافٌ بظلْمِ النَّفْسِ

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا﴾: عبَّر بالقول دون النِّداء أو الدُّعاء؛ لأنَّه أعمُّ من الدّعاء والنّداء، وفيه إشارةٌ إلى الاعترافِ بظلمِ النَّفس، وأنَّهما أضرَّا بأنفسِهما بارتكابِ المعصية، وجَرَّا على أنفسِهما ما لم يكن موجودًا، وذلك بأن بدَتْ سوءاتُهما.

نُكتةُ حذْفِ حرفِ النِّداءِ، في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا﴾:

حُذِفَ حرفُ النِّداء (يَا) للإيجازِ وللإيذانِ بقُربِ اللّهِ تعالى منَ الدَّاعي، وللإشعارِ بطلبِ المبادرةِ إلى التَّضرُّعِ بعد المعصيةِ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/356، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/387.

ويُحتملُ أنْ تكونَ الصيغةُ نداءً، وهو ليس بنداءٍ، بل هو بمعنى الدُّعاءِ والتَّضرُّعِ؛ لِيكونَ على خلافِ مقتضَى الظَّاهرِ، كما تأتي صيغةُ الأمرِ بمعنى الدُّعاءِ، وهو في القرآنِ كثيرٌ، مثلُ قولِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾ [إبراهيم: 41]، فهذا دعاءٌ بصيغةِ الأمرِ لطلبِ المغفرةِ منَ اللّه له ولوالديه ولجميعِ المؤمنين في يوم القيامة. ونُكتةُ مجيءِ الدُّعاءِ والتَّضرُّعِ بصيغةِ النِّداءِ الّذي حُذفَتْ منه الأداةُ هي الإشعارُ بقُربِ الدَّاعي إلى المدعوِّ معَ إقبالِ المدعوِّ إليهِ بالاستجابةِ، ويُحتملُ أنْ يكونَ حذفُ الأداة لنُكتةٍ أخرى، فإنَّه لمّا كانَ النِّداءُ فيه طَرَفٌ من معنى الأمرِ، حُذِفَتْ (يا) من نداءِ الرَّبِّ؛ لينقُصَ معنى الأمرِ أو يزولَ؛ لأنَّ (يا) تُؤكِّدُه، وتُظهرُ معناهُ، فكانَ في حذفِ (يا) النِّداء إجلالٌ وتعظيمٌ وتنزيهٌ لربِّ العالمين[1].

اللّـهُ تَـعـالى قـريـبٌ، مِـنَ الدَّاعِي والمتضرِّع

نُكتةُ النِّداءِ بـ ﴿رَبَّنَا﴾:

لمّا كانَ الربُّ بمعنى المربِّي والمنعِم والمدبِّرِ والمالكِ والمتكفِّلِ بمصلحةِ الخلْقِ؛ ناسبَ نداءَ آدمَ وحوَّاءَ هنا بـ ﴿رَبَّنَا﴾؛ للإشعارِ بحاجتِهما إلى ربِّ العالمينَ، وأنَّه الملجأُ الّذي يَلجأُ إليه الخلقُ دائمًا، ولهذا جاءَ قولُه: ﴿ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ بعدَ النِّداءِ بـ ﴿رَبَّنَا﴾.

ربُّ العالمينَ هو الملْجأُ الّذي يَلجأُ إليه الخلْقُ دائمًا

مُناسبةُ الإضافةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾:

أفادتِ الإضافةُ التَّعريفَ، بمعنى: ﴿رَبَّنَا﴾ الّذي نعرفُه ونعرفُ صفاتِه، ولمّا كانتِ الإضافةُ هنا على معنَى اللّام؛ أفادتْ معنى تخصيصِ حاجتِهما إلى ربِّ العالمينَ، وتَحْمِلُ طلب التَّلَطُّف والتَّحَنُّن عليهما؛ لأنَّهما في مقام التربيةِ.

تـخـصـيـصُ الحاجةِ إلى الله ربِّ الـعـالـمـينَ، يقينٌ وخَشيةٌ

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/65، والخفاجيّ، عناية القاضي: 4/159، والقونويّ، حاشيته على البيضاويّ: 8/360.

مُناسبةُ تسميةِ الذَّنْبِ ظُلمًا للنَّفسِ:

ارتكابُ الذَّنْبِ ظُلمٌ للنَّفْسِ، وجِنايةٌ عليها

لمّا كانَ مآلُ الذَّنبِ ما يقعُ على النَّفسِ منَ العقوبةِ كان ارتكابُه ظُلمًا للنَّفسِ، وكذلك لمّا أكلَا منَ الشَّجرةِ وعصَيَا ربَّهما جرَّا على أنفسِهما الدُّخولَ في طورِ ظهورِ السَّوءاتِ، ومشقَّةَ اتِّخاذِ ما يستُرُ عوراتِهما، وجرَّا على أنفسِهما كذلكَ غضبَ اللّهِ تعالى[1]، وفيه إشارةٌ إلى هضْمِ النَّفسِ والحرصِ على الطَّاعةِ على الوجهِ الأكملِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالجمْعِ في لفظ ﴿أَنفُسَنَا﴾، مع أنَّهما مُثنًّى:

أثـرُ المعصيةِ عامٌّ، يُؤثِّرُ على الظَّاهرِ والباطنِ

عبَّر بالجمعِ دون المُثنَّى (نَفْسَيْنَا)؛ إشعارًا بأنَّ قلبَيهما - أيضًا - قد صُفِّيا، وخُلِّصا من أثرِ تلك المعصية، وأنَّ ذلك مطمورٌ وداخلٌ في نفوسِ ذرِّيَّتِهما.

سببُ إيثارِ لفْظِ ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، في الآيةِ الكريمةِ:

الاعترافُ بالذَّنبِ يتضمَّنُ طلبَ المغفرةِ، والتَّجاوُزِ عنِ الإثمِ

لمّا قالَ اللّهُ تعالى في الآيةِ الّتي سبقتْ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 19]، ثمَّ إنَّهما أكَلا منها، كانَ في قولِه تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، معنى تلقينِ الاعتذارِ لهما؛ لعلمِه تعالى بأنَّهما يقعانِ في الأكلِ منَ الشَّجرةِ، فمِنْ ثمَّ قالَا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، فتأيَّدَ أنَّ الظُّلمَ في قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 19] قُصِدَ به ظُلمُ النَّفسِ[2].

دَلالةُ إسنادِ الظُّلْمِ إليهما:

حُسْنُ الأدَبِ في الدُّعاءِ، مِفتاحٌ للوُلُوجِ إلى الإجابةِ

في قولِه تعالى: ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ دلَّ إسنادُ الظُّلم إليهما دون أن يقولَا: (ربنا قدَّرتَ علينا كذا)، أو (قضيتَ علينا كذا)؛ إلى الأدبِ في الدُّعاءِ، حيثُ أسندَا المعصيةَ إليهما، واعترفا بها.

سِرُّ وصْفِهما لذنْبِهما بالظُّلْمِ، في: ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾:

وصفَ وقوعَهُما في المعصيةِ - مع أنَّها منَ الصَّغائرِ - بظُلْمِ

(1) رضا، تفسير المنار: 8/312، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/67.
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/10.

النَّفسِ على عادةِ الأولياءِ والصَّالحين باستعظام الصَّغيرِ منَ السَّيِّئات، فالعبدُ كمالُه في حاجتِه إلى ربّه وعبوديتِه وفقرِه وفاقتِه إليه، فكلَّما كانت عبوديتُه أكملَ كان أفضلَ، وصدورُ ما يحُوجُه إلى التّوبة والاستغفارِ ممّا يزيدُه عبوديةً وفقرًا وتواضعًا. ومنَ المعلوم أنَّ ذنوبَهم ليست كذنوب غيرِهم، بل كما يقال: "حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرَّبين"[1].

الأبـــــرارُ يَستعْظِمُون صَغيرَ السَّيئاتِ، تَعظيمًا لِحَقِّ الله عليْهِم

دَلالةُ تقديمِ الاعْترافِ بظُلْمِ النّفْسِ، على طلَبِ المغفرةِ والرَّحمةِ:

قوله تعالى: ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾، وفيها قُدِّمَ الاعترافُ بالذَّنب، للإشعارِ بأنَّه سبيلٌ إلى طلبِ المغفرةِ والرَّحمةِ، وفي هذهِ الآيةِ موعظةٌ لنسلِ آدمَ وحوَّاءَ، وتعريفُهم كيفَ السَّبيلُ إلى التَّنصُّلِ منَ الذُّنوبِ، وأنَّه لا ينفعُ إلّا الاعترافُ والتَّوبةُ[2].

تعليمُ بنِي آدمَ طريقَ التَّنصُّلِ مِنَ الذُّنوبِ، عِنْدَ علّامِ الغيوبِ

نُكتةُ مُناسَبةِ طلَبِ المغفرةِ والرَّحمةِ في الآيةِ:

لَمَّا توقَّعا استحقاقَ العذابِ ووجوبَه بسببِ ارتكابِ المعصيةِ؛ ناسبَ أنْ يطلبَا المغفرةَ والرَّحمةَ من ربِّ العالمينَ، فإنَّهما رأيَا منَ العصيانِ بوادرَ الضُّرِّ والشَّرِ ببدُوِّ السَّوْءَات، فعَلِما أنَّه منْ غضبِ اللّهِ ومنْ مخالفةِ وصايتِه[3].

مِنْ أمَاراتِ غَضَبِ اللهِ ظُهورُ السَّوءَاتِ والعوْراتِ

دَلالةُ الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾:

أفادتِ الواوُ عطفَ المسبَّبِ على السَّبب، بمعنى: أَنَّ الاعترافَ بالذَّنبِ سببٌ للتَّوسُّلِ لِطلبِ المغفرةِ والرَّحمة.

الاعترافُ بالذَّنْبِ

مُناسبةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِن﴾ الشَّرطيَّةِ، في السِيّاقِ الحكيمِ:

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾، عُبِّرَ بـ﴿إِن﴾ الشَّرطيَّةِ الّتي تكونُ لما يندرُ وقوعُهُ، أوتأتِي في مقامِ الخُلوِّ عنِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ؛

مَنْ تابَ مِنْ ذنْبِه؛ أَشْبَهَ آدمَ، ومَنْ أصرَّ أَشْبَهَ إبليسَ

(1) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية: 2/407.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/116.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/67.

للإيذانِ بأنَّ آدم وحوَّاءَ، كانَا يشعرانِ بعظَمِ الذَّنبِ الّذي ارتكباه في حقِّ اللّه تعالى، فأفادت ﴿وَإِن﴾ تصويرَ الأمرِ بأنَّه لا يصلحُ إلَّا لمجرَّدِ الفرضِ للارتيابِ في مغفرةِ اللّهِ لهما ورحمتِه بهما؛ تعظيمًا لمعصيةِ اللّهِ تعالى، على عكسِ إبليسَ الّذي تمادَى، وتكبَّرَ، ولمْ يعترفْ بذنبِهِ.

دَلالةُ الجمْعِ بينَ المغفرةِ والرَّحمةِ في الآيةِ الكريمةِ:

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾، أفادتِ الواوُ هنا التَّشريكَ على معنى الجمعِ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه في الشَّرط، فطلبَا المغفرةَ لذنبِهما والرَّحمةَ بهما؛ لِما ذكره سبحانه منْ أنَّ الشَّيطانَ عدوٌّ لهما، فلا قُدرةَ لهما على ردِّ عُدوانِ الشَّيطان بغيرِ رحمةِ اللّهِ تعالى.

لا قُـدرةَ لبنِي آدمَ عـلى رَدِّ عُدْوانِ الشَّيطانِ بغَيْرِ رحْمةِ اللهِ تعالى

مُناسَبةُ حذْفِ مفعولِ ﴿تَغْفِرْ﴾:

حُذِفَ مفعولُ ﴿تَغْفِرْ﴾؛ إذ لم يقولا: (وإنْ لم تغفرْ لنا ذنبَنا هذا أو ظُلمَنا)، وبيانُ المناسبةِ أنَّه لمّا كانَ حذفُ المفعولِ هنا يفيدُ العمومَ؛ دلَّ على أنَّهما قد علَّقا النَّجاةَ منَ الخُسرانِ على المغفرةِ العامَّةِ المطلقةِ الّتي تشملُ هذا الذَّنْبَ وغيرَه؛ لمناسبةِ مقامِ الرُّجوعِ إلى اللّهِ[1].

أفضلُ الـدُّعـاءِ ما أفـادَ عُـمومَ المـغـفـرةِ، لِمَـحْـوِ عُمومِ الخطايَا

مُناسَبةُ التَّرتيبِ بينَ المغفرةِ والرّحمةِ في السِّياقِ:

لمّا كان ظلمُ أنفسِهما بمعنى اتِّهامِهما إيَّاها بالتَّقصيرِ بمجاوزتِها الحقَّ؛ ناسبَ أنْ يبدأَ بطلبِ المغفرةِ في قوله: ﴿تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾، فيكونَ عطفُ الرَّحمةِ على المغفرةِ من عطفِ العامِّ على الخاصِّ، كما أشعرَ التَّرتيبُ أنَّ اللّه تعالى إنَّما يغفرُ الذُّنوبَ برحمتِه، والتَّخليةُ سابقةٌ على التَّحليةِ، وذلك لأنَّ مغفرة الذُّنوب تخليةٌ، والرَّحمةَ تحليةٌ - وأيضًا - لأنَّ المغفرةَ سلامةٌ، والرَّحمةَ غنيمةٌ، والسَّلامةُ مطلوبةٌ قبلَ الغنيمة، وأيضًا أنَّ المُذنبَ يطلبُ المغفرة أوَّلاً، ثمَّ بعد ذلك تنزلُ الرَّحمةُ ثانيًا.

إنَّما يَغفرُ الله تعالى الذُّنوبَ برحْمتِه وصَفْحِه

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/312.

سِرُّ العُدولِ عن طلَبِ المغفرةِ والرَّحمةِ إلى صِيغةٍ أُخرَى:

تـعـدُّدُ صِـيَـغِ الـسُّـؤالِ والـطَّـلـبِ، من بَليغِ التّصْويرِ

عدلَ القرآنُ الكريمُ عن طلب المغفرةِ والرَّحمةِ مباشرةً بأن يقولا: (فاغفر لنا وارحمنا) إلى هذا الأسلوب ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾؛ للدَّلالةِ على تعدُّد صُور طلبِ المغفرةِ والرَّحمة؛ فإنَّ السّائلَ تارةً يسألُ بصِيغةِ الطَّلب، وتارةً يسألُ بصِيغةِ الخبر، إمَّا بوصْفِ حالِه، وإمَّا بوصْفِ حال المسؤولِ، وإمَّا بوصف الحالَيْنِ معًا، وتارةً يكون بصيغةِ الشَّرطِ كما هنا.

سِرُّ عدَمِ الإتيانِ بلفْظِ ﴿رَبَّنَا﴾ في هذا المقامِ كسابِقِه:

المـتـضَـرِّعُ إلى اللهِ قريبٌ منهُ، يُجيبُ دَعْوتَه إذا دَعاه

لم يأتِ التَّعبيرُ بلفظ ﴿رَبَّنَا﴾؛ بأن يقولا: (وإن لم تغفر لنا ربَّنا وترحمنا)، لسبْقِ ذكرِه في قولِه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ﴾، وأيضًا لأنَّ المقامَ مقامُ تضرُّعٍ وتذلُّلٍ؛ فحالهم يُنبئُ بنُطقهم: (ربَّنا ربَّنا) من شدَّة الإلحاحِ عليه سبحانه بمغفرةِ ذنوبهم.

سِرُّ تَقديمِ ﴿لَنَا﴾ على ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾:

الاعترافُ بالذَّنْبِ سبيلُ التَّوفيقِ إلى التَّوبةِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ للتَّخصيصِ؛ لأنَّهما اعترفا بذنْبِهما، والسِّياقُ في حقِّهما؛ أمَّا أمرُ الرَّحمة في قوله: ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ فهو مزيدُ فضلٍ يَعُمُّهم، ويعُمُّ غيرَهم.

دَلالةُ التَّعبيرِ عن الغفران والرّحمة بالفعل المضارعِ:

مـن صِـفـاتِ المـؤمـنـين، الإصـرارُ على طـلـبِ المـغـفـرةِ والرَّحمةِ

في قولِه تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾، عبَّرَ بالمضارعِ استدرارًا واستمرارًا لمغفرةِ ذنبِهما ونزولِ الرَّحمَةِ عليهما. وفيه إشارةٌ إلى استحضارِ صورةِ آدمَ عليه السلام وزوجِه، وهما يرفعان أَكُفَّ الضَّراعة مجدِّدين طلبَ المغفرة والرَّحمةِ، مُلحِّين على الله، وفي هذا تعليمٌ لبني آدمَ بالإلحاح على الله في طلبِ المغفرة والرَّحمة.

بَراعةُ التَّعبيرِ بجوابِ القَسمِ:

لمّا وقعتِ اللَّامُ في قولِه تعالى ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ في موضعِ الجوابِ دلَّ على أنَّ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ جوابُ قسَمٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ:

(وَاللهِ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ)، ثمَّ إنَّ الشَّرطَ المذكورَ: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ حُذِفَ جوابُه؛ لدلالةِ جوابِ القسمِ المقدَّرِ عليه، فحُذِفَ القسمُ المقدَّرُ من نفسِ لفظِ الشَّرطِ، وذُكِرَ جوابُه، وذُكِرَ الشَّرطُ، وحُذِفَ جوابُه المقدَّرُ من نفسِ لفظِ جوابِ القسَمِ، ودلَّ المذكورُ على المحذوفِ في الموضعين، فكأنَّ جملةَ ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ كُرِّرت مرَّتين: مرَّةً باعتبارِها جملةَ القسمِ، وأخرى باعتبارها جملةَ الشَّرطِ، وكذلك الأمرُ في جملةِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فالكلامُ على نيَّةِ التَّكرير، والنُّكتةُ في هذا التَّعبير أنَّه تضمَّنَ أسلوبَيْن: أسلوبَ القسَمِ المفيدَ تأكيدَ المعنى وتقويتَه وتقريرَه، وأسلوبَ الشَّرطِ الدّالَّ على أنَّ وقوعَ الشَّرطِ سببٌ لوقوعِ الجزاءِ، معَ ما تدلُّ عليه (إنْ) الشَّرطيَّةُ كما تقدَّمَ[1].

مِـــن آدابِ الـدُّعـاءِ تأكِيدُ طـلَـبِ المغـفـرةِ والـــرَّحـــمـــةِ، بإخباتٍ وخُشوعٍ

سِرُّ تَقديمِ المغفرةِ على الرَّحمة والعكس:

النَّاظرُ في هذهِ الآيةِ الّتي تحدَّثتْ عن آدمَ وزوجِه، يجدُ تقديمَ المغفرةِ على الرَّحمة، وذلك من بابِ التَّناسبِ معَ مطلَعِ الآيةِ؛ حيث بُدِئَتْ بقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، والظُّلم ذنْبٌ يتطلَّب المغفرةَ، فناسبه تقديمُ المغفرة على الرَّحمة؛ أمَّا الآيةُ الّتي جاءت في قصَّة موسى مع قومه؛ فقد بُدِئَت بقولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾؛ فلمَّا كان الضَّلالُ لا يزولُ إلَّا برحمةِ اللهِ؛ وذلك بعد تصميمِهم وتصلُّبِهم في عبادة العِجل وقولِهم: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ [طه: 91]، ناسبه تقديمُ الرَّحمة، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 149].

الـظُّـلـمُ ذنْـبٌ يَتطلَّبُ المغفرةَ، فناسبَه تَقديمُ المـغـفـرةِ على الرَّحمةِ

دَلالةُ تتابُعِ التَّأكيدِ، في قولِه تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ﴾:

أُكِّدَتْ جملةُ جوابِ القسمِ الدَّالَّةُ على جوابِ الشَّرطِ المحذوفِ

تأكيدُ الخُسرانِ بانتفاءِ مَغفرةِ اللهِ ورحْمتِه

(1) الأخفش، معاني القرآن: 1/323، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/29، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/65.

بمؤكِّدين: لام القسم ونون التَّوكيد الثَّقيلة؛ إظهارًا لتحقيق الخُسران بانتفاء مغفرة اللّه ورحمته، واستغفارًا للّه واسترحامًا منه [1] ﷺ.

بَراعةُ التَّعبيرِ بالكِنايةِ، في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

قد يقالُ: لو قالَا: (لنكونَنَّ خاسرَين)؛ لكان أخصرَ وَأوفى للمعنى، والجوابُ: أنَّه ليسَ كذلك، وبينهما فرقٌ، فإنَّ ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، أشدُّ من (خاسرَين)، وبيانُه أنَّه لمّا كانت (أل) في قولِه: ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ جنسيَّةً، دلَّتْ على أنَّ مَن لم يغفرِ اللّهُ له ويرحمْه؛ هو واحدٌ من الفئةِ الموصوفةِ بالخُسرانِ ومعدودٌ منهم، فيكونُ قد أثبتَ خسرانَه بطريقةٍ تشبهُ الاستدلالَ، لثبوتِ الوصْفِ له بطريقِ اللَّازم؛ ليكونَ من قبيلِ الكنايةِ الّتي هي إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ ملزومِه، وهي أبلغُ منَ التَّصريح، فكأنَّه أثبتَ الخُسرانَ له مرَّتين: مرَّةً لأنَّهُ عدَّهُ من زُمرةِ الخاسرين، لدخولِه فيهم بسببِ (أل) الجنسيَّةِ، وأخرى حينَ أثبتَ له الوصفَ باللُّزوم.

وُرودُ التّكنيّةِ دونَ التّصريحِ، من بَليغِ البيَانِ القُرآنيّ

بَلاغةُ حذْفِ مُتعلَّقِ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

حُذِفَ متعلَّقُ الخاسرين، فلم يقلْ: (لنكونَنّ من الخاسرين أنفسنا، أو آخرتنا) مثلًا، إمَّا لإفادةِ العمومِ بمعنى: إنْ لم تغفرْ لنا، وترحمْنا لنكونَنَّ منَ الخاسرين الّذينَ خسروا أنفسَهم بظلمِهم لها، وخسرُوا غُفرانَ اللّه تعالى ورحمتَه[2]، وخسروا كلَّ شيءٍ، وإمَّا بمعنى: أنَّ الوصفَ المشتقَّ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ صارَ لازمًا لهما إنْ لم يتحقَّق الشَّرطُ.

يُحذفُ المتعلَّقُ، لإفـادةِ عُـمـومِ الـخُـسـرانِ أو لإثباتِ الوصْفِ

بَلاغةُ الكِنايةِ في أُسلوبِ الشَّرطِ في السِّياقِ:

أفادَ الشَّرطُ معنى آخرَ مقصودًا منه هو الدُّعاءُ والسُّؤالُ، بمعنى كُنِّيَ بالشَّرط لسؤالِ التَّوبةِ والسَّترِ والتَّغمُّدِ بالرَّحمةِ، فيكونُ من

مِن روائعِ بلاغةِ القُرآنِ الكِنايةُ بـالـشَّـرْطِ عـنِ الدُّعاءِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/65.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2800.

مجيء الشَّرط على طريقِ الكناية، ولكن بإرادةِ مجموعِ المصرَّح به والمكنَّى عنه، أو يكونُ بتقديرِ محذوفٍ دلَّ عليه المذكورُ، وتقديرُ الكلام: (ربَّنا اغفرْ لنا، وارحمْنا، وإنْ لم تغفرْ لنا، وترحمْنا؛ لَنكونَنَّ من الخاسرينَ)، ومثلُه قولُ نوحٍ عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: 47][1].

سِرُّ الوصْفِ بـ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، في الآيةِ الكريمةِ:

المعصيةُ خُسرانٌ واضحٌ، وبلاءٌ فاضِحٌ

اختارَ التَّعبيرَ بوصْفِ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ دون غيرِه كالظَّالمين؛ لأنَّ الخُسرانَ يدلُّ على انتقاص رأسِ المالِ، والطَّاعةُ هي رأسُ مال المسلم، فإذا عصى، وظلم؛ خسر رأسَ ماله؛ تشبيهًا بالظَّالم الّذي ظلم نفسَه، وعرَّضها للعذابِ، وفي ذلك خَسارةٌ للنَّفس أيُّ خَسارةٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

الدَّلالةُ على الثُّبوتِ، وتمكُّنِ الخُسرانِ

عبَّر باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ دون الفعلِ (خسروا)؛ للدَّلالةِ على الثُّبوت، وتمكُّنِ الخُسرانِ، إذا لم تُغفرْ ذنوبُهما.

بيانُ الفَرْقِ بينَ مَعصيةِ إبليسَ ومَعصيةِ آدمَ:

كلُّ فردٍ مَوكولٌ إلى طلَبِه، فمَنِ استغفرَ غُفرَ له، ومَنْ تكبَّر؛ لُعِنَ وطُرِدَ

من لطائفِ الآيةِ بيانُ الفرقِ بَين معصيةِ إبليسَ ومعصيةِ آدمَ، فإبْليسُ عصَى، وأصرَّ على المعْصيَة، وآدمُ عصى، وَتَابَ عَنِ المعْصيَة فقَبِل اللّهُ توبته، وهداه رُشدَه: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾ [طه: 122]، وَإبْليسُ كَانَ مُتَعَمِّدًا، وآدمُ كَانَ سَاهِيًا، وإبليسُ طلبَ النَّظِرةَ، ولم يطلبِ التَّوبةَ، وآدمُ طلب التَّوبةَ والرَّحمةَ، فوُكلَ كلُّ واحدٍ إلى ما طلبَه[2].

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/386، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/387، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2800.

(2) السّمعانّي، تفسير السّمعاني: 2/172، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/387.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 13 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-09-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 13 : سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-09-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»